HNSJ Humanitarian & Natural Sciences Journal
ISSN: (e) 2709-0833
www.hnjournal.net
مجلة العلوم الإنسانية والطبيعية
مجلة علمية محكمة
معامل التأثير العربي للعام 2020م = 0.44

عنوان البحث

تلقي السنن الإلهية في الخطاب الشعري الأندلسي -مرثية المعتمد بن عباد - أنموذجا

عمار الوكيلي[1]

[1] أستاذ اللغة العربية بالسلك الثانوي التأهيلي\ ثانوية ابن سينا – الرباط – المغرب
باحث بسلك الدكتوراه – جامعة ابن طفيل\ كلية اللغات والآداب والفنون – القنيطرة – المغرب
بريد الكتروني: mrelwakili@gmail.com

تاريخ النشر: 2021/06/01م تاريخ القبول: 2021/05/26م

المستخلص

يصبو زعمنا محاولة تلقي السنن الإلهية في الخطاب الشعري الأندلسي، بتصور عربي عميق في الرؤية والمنهج، على مستوى الفهم والتحليل والتأويل، لاستجلاء مقتضيات الحكمة الربانية الجارية على البشرية وفق نظام مطرد لا يتغير ولا يتبدل (السنن)، لارتباطها بالحالات والتحولات والوقائع والأحداث، جاعلين من مرثية المعتمد بن عباد منطلقا لدراستنا، لتجسيدها جوهر معاناته إلى جانب ملوك الطوائف في الأندلس_ المخلوعين من طرف المرابطين بقيادة يوسف بن تاشفين.

الكلمات المفتاحية: التلقي، السنن الإلهية، الخطاب الشعري، الأندلس.

RESEARCH ARTICLE

RECEPTION OF DIVINE LAWS THROUGH ANDALUCI POETIC DISCOURSE : ALMOAATAMID IBN AABBAD LAMENTATION POETRY AS EXAMPLE

OMAR EL WAKILI[1]

[1] Arabic High School Teacher at Ibn Sina High School, Rabat, Morocco
Doctoral researcher at School of Arts, Ibn Tofail University, Kenitra, Morocco.
Email: mrelwakili@gmail.com

Published at 01/06/2021 **Accepted at 26/05/2021**

Abstract

This study starts from a deep (Arabic) conceptual and methodological worldview, aiming at revealing the perception and reception of divine laws in Andaluci poetic discourse on the levels of understanding, analysis and interpretation. The overall purpose of the study is to reveal the exigencies of the systemic, consistent and unchangeable divine wisdom on humanity, as this wisdom is manifested in real life unfolding situations and changes. To this end, this study uses Almoaatamid Ibn Aabbad Lamentation as a sample, for it dramatically conveys his suffering with Moulouk Al Tawaef, who have been overthrown by Almoravids dynasty led by Yucuf Ibn Tachafin.

Key Words: divine laws, reception, Andaluci poetic discourse

مقدمـة

تروم الدراسة محاولة التقعيد والتأصيل للتلقي عند العرب، ولا ينم ذلك عن نزعة قومية بقدر ما هو تفكير جديد بوعي سديد في الفكر العربي الذي وصل ذروته في زمن النهضة العربية الإسلامية. وهذا ليس معناه إقصاء لكل ما هو دخيل من مناهج، فلكل جهد أثره. ولا نصبو في ذلك إلى المقارنة بين النقديين (العربي والغربي) في التلقي، وإنما مقصدنا تنبيه الباحثين إلى ما راكمه أجدادنا القدامى من نظريات أدبية في غاية الأهمية، سواء على مستوى التحليل أو التأويل.

كما تجدر الإشارة إلى أن الخطاب الشعري العربي موضوع الدراسة قد أنتج في سياق حضاري وتاريخي وديني معين، وأن نزعه من تربته الأصلية قد يربك عملية التلقي من جهة، ويجعلها عصية عن الإدراك والفهم والتحليل والتأويل من جهة أخرى. وهو ما دفعنا إلى اعتماد المنهج التاريخي لمقاربة الموضوع وفق سياقه الذي أنتج فيه.

إن الهوة الزمنية التي تفصلنا عن الخطاب الشعري المدروس يمكن أن تستشكل عملية التلقي فيصبح الوصول إلى مقاصده غير قابل للتحقق بشكل واضح، وهو ما يستدعي منا استحضار النسق الذي أنتج فيه الخطاب من جهة أولى، والمقصد من إرساله من جهة ثانية، ومقام صاحبه من جهة ثالثة[1]. فما سياق الخطاب الشعري عند المعتمد؟ وما مقصده منه؟ وما مقامه فيه؟

كما نتوخى التنبيه إلى أن أهمية التحليل السنني للخطاب الشعري الذي نحن بصدده يؤسس لتصور منطقي لمآل المعتمد بن عباد في محنته، وذلك وفق نسق تاريخي محدد، أو لنقل بصيغة أخرى إن السنن هي فقه الخطاب والمحددة لنظام اشتغاله، إن على مستوى التحليل والتركيب، كما أنها قابلة للتعميم والمقارنة والقياس. وفق إطار متكامل في الدراسة والتحليل والتأويل. وبها نتعرف على كيفية انشطار عقد الأندلس الفريد.

وحتى نكون أكثر فاعلية وجب علينا تحديد صيغة الخطاب وطبيعة اشتغاله وكيفية توظيفه، وأدواته الإجرائية. وبما أن اللغة هي قوام التواصل الإنساني، فإن الخطاب هو وعاء مشاعرها وأفكارها. وما دام الخطاب هو رسالة بين طرفين أو أكثر، فإنه متحقق في الزمان والمكان. وإذا كان الخطاب هو استعمال الفرد للسان بهدف التعبير، فإنه يخضع لعامل التأثير والتأثر، ومنه تتحقق غاية السنن في الإرشاد والاعتبار والاتعاظ، بهدف إيقاظ العقول ورفع الهمم. والخطاب في لسان العرب لابن منظور مشتق من الخطب وهو الشأن والأمر صغر أو عظم. ولعمري هذه زبدة التحليل السنني. أما استعمال الخطاب الأدبي عوض العمل الأدبي، فيعلل بتنوع الخطابات وتعددها (الخطاب السياسي الخطاب الفلسفي ...) وأن دراسة الخطاب الأدبي في علاقته بالخطابات الأخرى سيفتح المجال لتعميق الرؤية والتصور والمنهجية.

التلقي عند النقاد والبلاغيين العرب القدامى:

لقد احتل المتلقي مكانة هامة عند النقاد والبلاغيين العرب القدامى، ويعزا الفضل في ذلك إلى طبيعة النسق الذي

[1] أنظر في هذا الصدد مقالنا المعنون بـ "التلقي النسقي وسياق مقصد التوفيق بين العقل والنقل في قصة حي بن يقظان لابن سينا أنموذجا. مجلة ريحان للنشر العلمي – سوريا – حلب ع 7 فبراير 2021.

أنتج فيه الخطاب الشعري من جهة، وما كان يطبع الشكل التواصلي التفاعلي في إلقاء الشعر وتلقيه من جهة أخرى. فكان السماع قوام الثقافة العربية لارتباطه بتلقين المعرفة ونقل الأخبار والأحاديث، وتلقي الشعر، مشكلا بذلك مدونة التراث العربي قبل التدوين، مما جعل كثرة العلم ترتبط بكثرة السماع، ويذهب الجاحظ في ذلك عند حديثه عن عبد الله بن أبي عائشة بقوله: «كان كثير العلم والسماع متصرفا في الخبر والأثر وكان من أجود قريش وكان لا يسكت وهو في ذلك كثير الفوائد»[2]. ويرى صاحب الوساطة أنه «لا طريق للرواية إلا السمع، وملاك الرواية الحفظ».[3]

ومن هنا عمل النقاد على وضع أسس وقواعد ينهجها المتلقي ليكون على درجة عالية من الوعي والفهم، وأنه لا سبيل للوصول إلى معاني ودلالات الخطاب إلا بتذوق النص واستحسانه، وقد جعلوا القلب مصدرا لهذا الاستحسان، بحيث «لم يرض منه إلا بأعذب لفظ وأقربه من القلب وألذ في السمع»[4]. كما ارتبط السمع باللفظ، والمعنى بالقلب، وفي هذا يقول صاحب الدلائل «الكلام لا يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه، ولفظه معناه، ولا يكون لفظه أسبق إلى سمعك من معناه إلى قلبك»[5]. وهذا القول هو جوهر نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني في التأليف بين اللفظ والمعنى. وأن القرآن الكريم معجز بلفظه ومعناه.

إن الروح الذي تلقى بها سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم للوحي – ارتبطت بالقلب لقوله تعالى: **{قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين}** سورة البقرة الآية 96. وقوله كذلك: **{نزل به الروح الآمين على قلبك لتكون من المنذرين}** سورة الشعراء، 194/193. وعليه فما مصدره القلب سيكون لا محالة ألذ في السمع مما يجعل فهمه عميقا ومؤثرا، وهي الحال التي كان عليها المصطفى حينما كان ينزل عليه الوحي.

أنواع المتلقي:

لقد جعل النقاد والبلاغيين العرب القدامى المتلقي درجات، وذلك بحسب مستوياته في الإدراك والفهم والتحليل والتأويل، ويمكن الوقوف عليها بشيء من الاختزال:

أ-المتلقي العالم:

عالم بقواعد اللغة وخفاياها، مطلع على أخبار العرب وأنسابهم ومعارفهم، عارف بقواعد الشعر وأغراضه، ويمكن أن يكون شاعرا، ومن أمثلة ذلك تلقي ابن جني للمتنبي، وقد اتكأ في تلقيه وحكمه على اللغة والنحو وهو إمام

---

[2]. أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق درويش جويدي، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، ط1، 1431هـ 2010 م، ج 1، ص 71.

[3]. علي بن عبد العزيز الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق وشرح محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي، منشورات المكتبة العصرية – صيدا بيروت، من دون طبعة وسنة، ص 16.

[4]. نفسه، ص 52.

[5]. عبد القاهر الجرجاني دلائل الإعجاز، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني القاهرة، ط 3، 1413هـ 1992 م، بدون سنة، ص 267.

فيهما، ولم يعصمه ذلك من إتعاب فكره وكد خاطره وبدل جهده، ويذهب صاحب الوساطة هذا المذهب في حديثه عن غموض الشعر وصعوبة تلقيه فهو « إذا قرع السمع لم يصل إلى القلب إلا بعد إتعاب الفكر، وكد الخاطر، والحمل على القريحة، فإن ظفر به فذلك من بعد العناء والمشقة »[6]، وبهذا نصل إلى جوهر المعاني والمقاصد من الخطاب، وأن لا سبيل إلى ذلك إلا بإعمال الفكر، « فإنك تعلم على كل حال أن هذا الضرب من المعاني كالجواهر في الصدف لا يبرز لك إلا أن تشق عنه »[7].

إن الشاعر كان يضرب ألف حساب للمتلقي في ذلك الزمان، فما بال المتنبي يجود شعره إلا وهو يعلم علم متلقيه بخفاياه. ولعمري أن ابن جني كان يقضي ليله ونهاره يقلب قصائد المتنبي عساه يتصيد خطأ ما. وقد كرس حياته لشرح شعره. ويمكن أن يفهم المتلقي العالم من شعر الشاعر ما لم يفهمه الشاعر نفسه، وهاك قول البرقوقي صاحب شرح ديوان المتنبي «كان إذا سأل المتنبي سائل عن معنى بيت ما من أبياته يقول: اسألوا الشارح يعني ابن جني»،[8] وهو ما جعل المتلقي يصل إلى معاني ومقاصد لم يدركها صاحبها. فإذا كانت الهيرمينوطيقا تستدعي فهم النص كما فهمه صاحبه، فإن المتلقي العالم يتجاوزها إلى فهم النص أعمق مما فهمه صاحبه.

ب-المتلقي المتذوق:

يرى عبد القاهر الجرجاني في الدلائل أن من شروط التلقي «الذوق والمعرفة"[9] وقد قدم الذوق على المعرفة لقيامه على مبدأ التأثير والتأثر، لأن الخطاب «أصوات محلها من الأسماع محل النواظر من الأبصار، وأنت قد ترى الصورة تستكمل شرائط الحسن وتستوفي أوصاف الكلام، وتذهب في النفس كل مذهب»[10]. وهو الأمر الذي نحاه حازم القرطاجني في أن المعاني إما أن تكون ملائمة للنفوس أو منافرة لها، بقوله: «للشعراء أغراضا أو الباعثة على قول الشعر وهي أمور تحدث عنها تأثرات وانفعالات للنفوس»[11]، ومن جملتها بسط النفوس وقبضها، وأنسها وكآبتها واستغرابها ووحشتها، وهي أشياء يتقاسمها المرسل والمتلقي معا. وما يثير انتباه الباحث في المنهاج، أن صاحبه أسس تصوره للخطاب الشعري على معيار تواصلي قوامه التأثير والتأثر، في عملية التلقي، وهو ما تفطنت إليه الباحثة غيثه بوضياف بقولها لقد «ارتبط مفهوم الشعر في منهاج حازم ارتباطا وثيقا بالمتلقي»[12]. ومن هنا، فتحقيق الأثر الإيجابي أو السلبي في الخطاب الشعري مرهون بعملية التلقي التفاعلي المؤطر بالذوق السليم. كما أن الغوص أعمق في قضايا المنهاج وأفكاره يجلي لنا بوضوح أن حازما جعل أسس عملية تلقي

---

[6]. الوساطة، م س، ص 19.

[7]. عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي وعبد العزيز شرف، دار الجيل، بيروت، ط 1، 1411هـ 1991م، ص 143.

[8]. عبد الرحمن البرقوقي، شرح ديوان المتنبي، مؤسسة هنداوي القاهرة بدون طبعة، 2012 م، ص 9.

[9]. دلائل الإعجاز، م س، ص 291.

[10]. الوساطة، م س، ص 412.

[11]. حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، الدار العربية للكتاب – تونس، ط 3، 2008 م، ص 9.

[12]. غيثة بوضياف، الشعرية ونظرية التواصل في منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجني، رسالة دكتوراه، إشراف الدكتور أحمد باب الله، جامعة باتنة كلية اللغة والأدب العربي والفنون، الجزائر، 2017 م، ص 200.

الخطاب الشعري موقعه من النفوس. وهناك من الباحثين من أفاض الكأس في الحديث عن التلقي لدى حازم.[13]

ج-المتلقي الموضوعي:

صحيح أن الموضوعية في تلقي الخطاب الشعري تنبع من عمق معرفة المتلقي بقواعد القريض، لكن هذه المعرفة لا تمنع من التحيز أحيانا. وهو ما جعلنا نفصله عن المتلقي العالم. وتحضرنا هنا تلك القصة الطريفة[14] التي وقعت لأمرئ القيس وعلقمة الفحل حينما احتكما لأم جندب زوج امرئ القيس: فألقى عليهما علقمة قوله:

فأتبع أدبار الشياه بصادق حثيق كغيت الرائح المتحلب

وألقى عليهما زوجها امرؤ القيس:

فللساق ألهوب وللسوط درة وللزجر منه وقع أهوج منعب

فحكمت لصالح علقمة وفوزه على زوجها، رغم ما يمكن أن ينتج عن هذا الحكم من صراع ونزاع مع زوجها الذي وصل بها إلى حد الطلاق فتزوجها بعد ذلك علقمة.

د-المتلقي الجاهل:

يقول فيه صاحب أسرار البلاغة «إن الجاهل الفاسد الطبع يتصور المعنى بغير صورته، ويخيل إليه في الصواب أنه خطأ»[15]، فهو لا يتجشم عناء الفهم والبحث والإدراك، لأنه «قصير الهمة في طلب الحقائق ضعيف المنة في البحث عن الدقائق، قليل التوق إلى معرفة اللطائف»[16]. فيكون حكمه ذاتيا لأنه نابع من أهوائه.

مسميات المتلقي عند القدامى:

لقد وضع النقاد والبلاغيين العرب القدامى تسميات متعددة للمتلقي مثل السامع، القارئ، المخاطب، المتذوق، العارف الحاذق، الناظر ... إلا أنهم جعلوا مسألة الإفهام العنصر الأساس في ذلك، وهو مكمن البيان عندهم، يقول الجاحظ «البيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى وهتك الحجب دون الضمير حتى يفضي السامع إلى حقيقته [...] لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام فبأي

---

[13]. أنظر محمد بنلحسن بن التجاني، التلقي لدى حازم القرطاجني من خلال منهاج البلغاء وسراج الأدباء، عالم الكتب الحديث إربد – الأردن، ط 1، 1432هـ 2011 م.

[14]. أنظر محمد الديهاجي وآخرون (كتاب جماعي)، التلقي والتأويل من النموذج النص إلى النموذج التفاعلي للقراءة، مطبعة أميمة ابن باجة، فاس، ط 1، 1435هـ 2014 م، ص 79 بتصرف.

[15]. عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، م س، ص 122.

[16]. نفسه، ص 42.

شيء بلغت الأفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان»[17]. وبذلك فجوهر التلقي هو حصول الفهم والإفهام وبهما يدرك المعنى ويتحقق البيان، والغاية من الكلام.

السنن الإلهية في مرثية المعتمد

تعريف السنن الإلهية:

جاء في لسان العرب، السنن جمع سنة وهي الطريقة المحمودة المستقيمة، وكذلك قيل فلان من أهل السنة، والسنة في الأصل الطريق، وهو طريق سنه أوائل الناس فصار مسلكا لمن بعدهم، وسنن الرجل قصده وهمته.[18] وسنة الله هي "طريقة حكمته الجارية مع الأسباب المقتضية لمسبباتها، كما قدرها وأجرها".[19] وهي بذلك الطريقة المتبعة في معاملة الله للبشر بناء على أفعالهم وسلوكهم ومواقفهم من شرع الله وما يترتب عن ذلك في الدنيا والآخرة.

إن فهم السنن الإلهية واستيعابها وتمثلها والعمل بها مدخل أساس لبناء أمة رشيدة قوية ومتحضرة قيميا ومتفوقة علميا وفكريا ومتقدمة اقتصاديا، كما أن الوعي بها وعي بالوقائع والأحداث والتجارب التي خلت وكان لليد البشرية علاقة بها إن سلبا أو إيجابا، وعلى منوالها نمتحن ونبتلى، فهي تاريخ المجتمع والأمة والحضارة.

فالقرآن الكريم جامع لسنن الله تعالى في خلقه تحذيرا وتنبيها ووعظا واعتبارا ووعدا ووعيدا. كما دلنا على ذلك ليلزمنا الحجة. وقد جاءت سننه عز وجل لتسيير هذا الكون وتنظيمه وترتيبه وفق نظام مطرد وثابت لا يتغير ولا يتبدل. لقوله تعالى: **{سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا}** سورة الفتح الآية 23، وقال أيضا: **{استكبارا في الأرض ومكر السيء ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله فهل ينظرون إلا سنت الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا}** سورة فاطر الآية 44.

فما مدى وعي الأمة الإسلامية بسنن الله الكونية بحثا وفهما وتمثلا وعملا؟ وما سر تقهقر وانتكاس الأمة الإسلامية رغم أنها وصلت قديما أوج الحضارة والرقي والازدهار وصعود مجتمع كان متخلفا وضعيفا، فأصبح يحتل الصدارة في كل الميادين؟ ولماذا تنهار دولة وتتقوى أخرى؟ ما أسباب الانتصار؟ وما أسباب الضعف؟ ما عوامل النجاح؟ وما عوامل الفشل؟ ما قواعد الرقي؟ وما قواعد الانحطاط؟ ولماذا انهزم ملوك الطوائف في الأندلس وحل مكانهم المرابطون؟ ولماذا انتصر المرابطون على النصارى وهزموهم؟ وما السر في استنجاد الأندلسيين بالمرابطين؟ ولماذا خلع يوسف بن تاشفين ملوك الطوائف ونفى بعضهم إلى المغرب؟ ولماذا ضاقت الرعية ذرعا بملوك الطوائف؟ وما الذي أوصل المعتمد إلى محنته التي طبقت الآفاق وتحدث عنها الشعراء؟ وما أسباب زوال ملكه؟ وما حجة يوسف بن تاشفين في نفيه؟ وما سر قوة يوسف بن تاشفين؟ وما أسباب ضعف المعتمد بن عباد وعدم قدرته على مواجهة النصارى؟ ولماذا لم يوحد ملوك الطوائف عقد الأندلس تحت راية واحدة؟

وبما أن الدرس السنني شامل لكل مناحي الحياة كثير الفروع والتقسيمات فإننا سنركز على السنن المرتبطة بمرثية

---

[17]. الجاحظ، البيان والتبيين، م س، ج 1، ص 56.

[18]. أنظر لسان العرب لابن منظور ج 13، ص 226.

[19]. حسن بن صالح الحميد، سنن الله في الأمم من خلال آيات القرآن الكريم، دار الفضيلة للنشر والتوزيع – الرياض، ط 2، 1432هـ 2011 م، ص 20. وانظر في هذا الصدد مفردات الراغب، وجامع الرسائل لابن تيمية.

المعتمد بن عباد. لكن قبل ذلك من هو المعتمد بن عباد؟

أبو القاسم المعتمد على الله محمد بن عباد الملك الشاعر:

يعد بنو عباد من أعظم ملوك الطوائف والمعتمد هو ثالث ملوك بني عباد حكم إشبيلية ثم قرطبة حينما ثار العامة على بني جهور سنة 461هـ، وقد حكم المعتمد ثلاثا وعشرين سنة من 461هـ إلى 484 هـ و«قد كان متمسكا من الأدب بسبب، وضاربا في العلم بسهم، وله شعر كما انشق الكمام عن الزهر».[20] وكان للأدباء والعلماء في زمانه مكانة هامة، وقد أبلى بلاء عظيما في معركة الزلاقة 479هـ إلى جانب يوسف بن تاشفين الذي سيصبح عدوه فيما بعد، وعلى يده سينتهي حكمه، بعد دفاع شديد انقطع نظيره غير جازع، يقول صاحب الذخيرة دخل البلد على المعتمد بعد أن جد الفريقان في القتال واجتهدت الفئتان في النزال فاستسلم المعتمد ليؤمن عن نفسه وذويه فنفاه ابن تاشفين إلى المغرب بأغمات فبقي هناك في نعمة وإحسان حتى انقرضت أيامه بعد مرض شديد، وكانت وفاته في ربيع الأول سنة ثمان وثمانين، وكان مولده في ربيع الأول سنة إحدى وثلاثين.[21]

ويمكن حصر هذه السنن وفق القصيدة في الآتي:

أ-سنة الابتلاء

ب-سنة التدافع

ج-سنة التداول

د-سنة الغلبة والتمكين والنصر

هـ-سنة الجزاء من جنس العمل

إن سنن الله الكونية مرتبطة بأحداث التاريخ المتوالية على البشرية جمعاء مسلمة وغير مسلمة، وبقيام الحضارات وتقدمها، بسقوطها وانحطاطها، بزوالها واستمرارها: وبسر قوتها وضعفها، وأن قانون الله مازال ساري المفعول فيها. فما مراد الله عز وجل منها؟ وكيف السبيل إلى الاهتداء بها؟

الكل يجزم أن أهل الحق في صراع دائم مع أهل الباطل، وأن الغلبة والنصر لأهل الحق، وأن الانحراف موصل إلى الخذلان، فالله عز وجل يدعونا إلى النظر فيما حصل للأقوام السابقة التي انزاحت عن طريق الرشد إلى الظلال، وأن المتأمل في تاريخ الإنسانية وما مرت به الأقوام والشعوب والأمم السابقة من وقائع وما آلت إليه من نتائج سيظهر له أن سنن الله كانت سارية عليهم. وأن الاعتبار بها أساس الخشية من الوقوع فيها، وذلك منتهى غايتها ومبلغ مقصدها.

إن خلع ملوك الطوائف بدأ بعد عام من معركة الزلاقة حينما عاد ابن تاشفين إلى الأندلس ومنهم من يقول إنه أرسل قائده سير بن أبي بكر فوجد ملوك الطوائف غارقين في اللهو والمجون بينما يعاني جيش المرابطين من ردع

[20]. ابن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الثاني المجلد الأول، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة بيروت، 1417هـ 1997 م، ص 41.

[21]. نفسه، ص 56-57 بتصرف.

العدو. فأرسل أبو بكر يخبر ابن تاشفين بالأمر فأمره بإخراج ملوك الطوائف إلى عدوة المغرب سلما وإن لم يفعلوا فالحرب، فبدأ ببني هود ببرطة تم ببني طاهر بشرق الأندلس، ثم يبني صمادح بألمرية وقد مات صمادح بهزيمته غما، ثم المتوكل بن الأفطس ببطليوس، ثم بالمأمون بن المعتمد بقرطبة وقد قتل حينها. ثم المعتمد بن عباد باشبيلية، وكان دفاعه شرسا بحيث حاصر المرابطون المدينة مدة شهر كامل، وقد كلفهم عناء كبيرا وبأسا شديدا، وسلم المدينة بعد استسلامه في رجب 484هـ، ثم بعده ابنه الراضي في رندة بعد قتله.[22] وهذا ما يدل على أن المحنة حلت بكل ملوك الطوائف ولم ينفرد بها المعتمد وحده. كما تجدر الإشارة إلى أن المعتمد استنجد بالعدو ألفونسو السادس حينما بدأ ابن تاشفين بخلع ملوك الطوائف فألزموه الحجة، بعد أن هزم المرابطون العدو. ولم يكن لهم عذر في خلعه ونفيه.

انطلاقا مما سبق يمكن الحديث عن اتباع أسباب النصر عند المرابطين (سنة النصر) قال تعالى: **{يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم}** سورة محمد الآية 7. وقوله كذلك: **{ولينصرن الله من ينصره}** الحج الآية 40 فنصرة الله اتباع أوامره واجتناب نواهيه، وبذلك يثبتنا على الحق ويعيننا على الأعداء. وهذا منهج المرابطين. وبالنصر تتحقق سنة التدافع، دفع الشر بالخير والظلم بالعدل فيعوض الله عز وجل أهل الجور والظلال بأهل الخير. قال تعالى: **{ولولا دفاع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين}** البقرة الآية 249. إن جبن ملوك الطوائف هو عدم دفعهم الباطل والعدوان الذي ألحقه بهم النصارى. فالأمة التي تجبن أمام عدوها يتفرق شملها وتزول قوتها وتذهب جماعتها وهيبتها فتصير تابعة خاضعة مذلولة وتلك عاقبة ملوك الطوائف، فإما العبودية والخضوع وإما السيطرة والغلبة.

ومن تجليات عدم دفعهم للباطل انغماسهم في اللهو والمجون والترف إلى حد الثمالة، وهي أشياء مولدة للهلاك ومفسدة للشعب وضعف لهمتهم. قال تعالى: **{وما للظالمين من أنصار}** آل عمران الآية 192. ولولا أن من الله عليهم بالمرابطين لما استطاعوا دفاع الأعداء، وأن إقرارهم بالهزيمة نابع من دفعهم للضرائب والمكوس والجبايات وسيكون من بعد ذلك تسليم الديار والرضى بالخزي والعار.

وبهذه الهزيمة انتهت أيامهم وذهب ملكهم وضاعت هيبتهم وحل من هم أحق بها (المرابطون) قال تعالى: **{وتلك الأيام نداولها بين الناس}** آل عمران الآية 140 (سنة التداول)؛ وهي قانون كوني يجري على الأمم والحضارات انطلاقا من ربط الأسباب بالمسببات، فالعقل السليم يربط الفشل بالكسل، وزوال النعمة بالجحود. كما أن قانون سنة التداول متعلقة بثنائية الاستقامة والاعوجاج. قال تعالى: **{ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم}** سورة الأنفال الآية 54.

إن المعتمد بن عباد امتحن في نعمة (الملك والجاه والسلطان والثروة ...) فخفق في ذلك فحقت عليه سنة الابتلاء، يقول صاحب الذخيرة متحدثا عن الأندلس وأهلها «أصبحوا طرائد سيوف، وجلاء حتوف قد خلعهم لين العيش على خشونته وأسلمتهم غفلات الزمان إلى محنه»[23] وأن محنة شاعرنا من صنيعه في نفسه ورعيته. كما

[22]. أنظر في هذا الصدد المعجب للمراكشي، ونفح الطيب للتلمساني.

[23]. الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، م س، القسم الثالث المجلد الأول، ص 9-10.

أنه لم يتخذ الأسباب الكفيلة للنصر. فتعدد خصومه، أولهم النصارى في حرب الاسترداد وثانيهم رعيته التي أثقل كاهلها بالضرائب التي تؤدى للعدو ليكفيهم شر القتال ويتركهم في نعيمهم، فلا هم ينتفعون بمال الرعية و لا هم يتركون الرعية تنتفع بمالها فيسددونها لمن يتقوى عليهم بها، وتلك حال الذل والهوان التي رضي بها ملوك الأندلس ولم يرض بها أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، وفي هذا يقول ابن حزم « طالب المال لعين المال، لا لينفقه في الواجبات والنوافل المحمودة – أسقط وأرذل من أن يكون له في شيء من الحيوان شبه، ولكنه يشبه العذران التي في الكهوف في المواضع الوعرة لا ينفع بها شيئا من الحيوان »،[24] وثالثهم يوسف بن تاشفين الذي ضاق صدره بصنيع المعتمد وغيره من ملوك الطوائف. فإما أن يخلعهم وإما ذهبت الجزيرة، فكتب الله لها البقاء في حوزة المسلمين على يد المرابطين زهاء أربعة قرون.

أما حال المعتمد وهو في منفاه الذي لم يكن سجنا كما يعتقد البعض وهذا رأي صاحب النبوغ في إحسان ابن تاشفين إلى المعتمد يقول «فليت شعري ماذا ينكر أصحابنا من هذه المعاملة التي هي في منتهى التسامح».[25] أما مكان نفيه بأغمات وقد كانت في ذلك الزمان عاصمة المرابطين، وأجمع لأوصاف الخيرات. صحيح أنه وضع في رجليه السلاسل، لكن بعد ثورة ابنه عبد الجبار في الأندلس. إلا أن الدراسة الموضوعية تلزمنا استحضار الخطاب الشعري عند المعتمد الذي يشهد عكس ما ذهب إليه عبد الله كنون.

يقول المعتمد في قصيدة له يصف حاله وحال بناته يوم العيد في أغمات.[26]

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا

فساءك العيد في أغمات مأسورا

ترى بناتك في الأطمار جائعــة

يعزلن للناس لا يملكن قطميرا

برزن نحـوك للتسليم خاشعـــة

أبصارهن حسيرات مكاسيـرا

يطأن في الطين والأقدام حافية

كأنها لم تطأ مسكا وكافورا

وهذه سنة الجزاء من جنس العمل، فحينما كان المعتمد يتقلب في رغد العيش كانت الرعية تعاني الفقر والتهميش.

[24]. ابن حزم الأندلسي، كتاب الأخلاق والسير أو رسالة في مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق والزهد في الرذائل، تحقيق ايقار رياض، مراجعة عبد الحق التركماني، دار ابن حزم من دون طبعة وسنة، ص 82.

[25]. عبد الله كنون، النبوغ المغربي في الأدب العربي، ط 2، 1380هـ 1960 م، ج 1، ص 63.

[26]. ديوان المعتمد بن عباد، ملك إشبيلية، تحقيق حامد عبد المجيد، أحمد بدوي، مراجعة طه حسين، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة، ط 3، 1421هـ 2000م، ص 101.

وجاء في الحديث عن أبي صرمة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**من ضار مسلما ضاره الله، ومن شاق مسلما شق الله عليه**"[27] إن إلحاق الضرر والمشقة بالمسلم لابد أن يكون لهما جزاء من صنيع الفعل إن آجلا أم عاجلا. فما حاله وحال بناته في أغمات إلا حال الرعية من قبل التي ضاقت ذرعا بأعباء الضرائب في الأندلس، فبينما الأمر على هذا الحال من التوتر وتربص العدو، تطلب منه زوجه اعتماد الرميكية (وقد شق اسمه من حروف اسمها المعتمد) – أن تلعب في الطين مع بناتها مقلدات بذلك بائعات اللبن، فأمر بأجود المسك والكافور ليخلط بالطين (وهو ما يسمى بيوم الطين)[28] وما ابتلاء الرعية من قبل إلا ابتلاء المعتمد في أغمات قال تعالى : **{ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع و نقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين}** سورة البقرة الآية 154. وبهذا الابتلاء يتبين الجازع من الصابر.

إن المعتمد وهو يرثي حاله يعلم علم اليقين أن سنة الله سارية عليه، فهو الذي كان ملء السماء والأرض ملك إشبيلية (الفردوس المفقود) سيدفن في مكان غريب، وبذلك لم يظفر من بني عباد إلا بالأشلاء. ومع ذلك كله يرى أنه يتسم بصفات الحلم والعلم والشجاعة ... ثم يقر بأن ما حل به حق لا باطل، ليدرك بذلك أن مهما عظم قدر الإنسان وعلا شأنه سيوضع في يوم ما على نعش من أعواد، ثم يبكي على قبره الغريب بدمع منهمر، لينتهي بأن صلوات الله ستبقى دائمة على قبره لا تحصى بتعداد.

ولما توفي نودي بصلاة الغائب عليه، والمعلوم أن حكم صلاة الغائب على الميت من كانت له مواقف عظيمة، وقد صلى الرسول صلى الله عليه وسلم على النجاشي صلاة الغائب لما أسداه من معروف للمسلمين حينما آواهم ونصرهم على الأعداء. وهذا ما يؤكد أن للمعتمد مواقف عظيمة في نصرة الإسلام والمسلمين، رغم هفواته المذكورة.

خاتمــة:

استندا إلى ما سبق يمكن القول إن ما نفتخر به من نصوص تراثية قوامها التلقي ورواية الشعر والحرص على حفظه وتداوله، وبهذا الصنيع وصلنا شعر غزير، ولولا ذلك لصرنا حفاة عراة من تراثنا لا نملك منه قطمير، مع العلم أنه لم يصلنا من تراثنا إلا النزر القليل. وبهذا نزعم ونقول إن المتلقي هو ديوان العرب الذي حمل على عاتقه أشعارهم فكان له الفضل في حفظ أنسابهم وحضارتهم وقيمهم وتاريخهم ... من الضياع والاندثار إلى أن جاء عصر التدوين.

وإن تعكزنا على السنن الإلهية في تلقي الخطاب الشعري، يرجع إلى الوعي بأهميتها في الفهم والتحليل والتأويل لما لها من تجليات منطقية وواقعية على الحالات والأحداث والتحولات.

[27]. أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه.

[28]. أنظر الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ونفح الطيب التلمساني.

ملحق: مرثية المعتمد بن عباد

لما أحس بدنو أجله، رثى نفسه بهذه القصيدة ووصى بأن تكتب على قبره، وهي منقوشة في ضريح المعتمد بأغمات قرب مراكش.

قبر الغريب سقاك الرائح الغادي حقا ظفرت بأشلاء ابن عباد
بالحلم، بالعلم، بالنعمى إذا اتصلت بالخصب إن أجدبوا بالري للصادي
بالطاعن، الضارب، الرامي إذا اقتتلوا بالموت أحمر، بالضرغامة العادي
بالدهر في نقم بالبحر في نعم بالبدر في ظلم بالصدر في النادي
نعم، هو الحق وافاني به قدر من السماء، فوافاني لميعاد
ولم أكن قبل ذاك النعش أعلمه أن الجبال تهادى فوق أعواد
كفاك فأرفق بما استودعت من كرم رواك كل قطوب البرق رعاد
يبكي أخاه الذي غيبت وابله تحت الصفيح، بدمع رائج غادي
حتى يجودك دمع الطل منهمرا من أعين الزهر لم تبخل بإسعاد
ولا تزل صلوات الله دائمة على دفينك لا تحصى بتعداد

المصادر والمراجع

1- القران الكريم.

2- أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق درويش جويدي، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، ط1، 1431هـ 2010 م، ج 1.

3- ابن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الثاني المجلد الأول، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة بيروت، 1417هـ 1997 م.

4- ابن حزم الأندلسي، كتاب الأخلاق والسير أو رسالة في مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق والزهد في الرذائل، تحقيق ايقار رياض، مراجعة عبد الحق التركماني، دار ابن حزم من دون طبعة وسنة.

5- أحمد بن المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الادب الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت، 1388هـ، 1968م.

6- إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، دار الشروق _عمان، 1997م.

7- عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي وعبد العزيز شرف، دار الجيل، بيروت، ط 1، 1411هـ 1991م، ص 143.

8- عبد القاهر الجرجاني دلائل الإعجاز، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني القاهرة، ط 3، 141هـ 1992 م.

9- عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد زينهم، محمد عزب، دار الفرحاني للنشر و التوزيع، 1994م.

10- علي بن عبد العزيز الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق وشرح محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي، منشورات المكتبة العصرية – صيدا بيروت، من دون طبعة وسنة.

11- عبد الرحمن البرقوقي، شرح ديوان المتنبي، مؤسسة هنداوي القاهرة بدون طبعة، 2012 م.

12- عبد الرحمان علي الحجي، التاريخ الاندلسي من الفتح إلى سقوط غرناطة 92-897هـ (711-1492) م. دار القلم بيروت، ط2، 1402هـ 1981م.

13- حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، الدار العربية للكتاب – تونس، ط 3، 2008 م.

14- أنظر لسان العرب لابن منظور ج 13.

15- ديوان المعتمد بن عباد، ملك إشبيلية، تحقيق حامد عبد المجيد، أحمد بدوي، مراجعة طه حسين، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة، ط 3، 1421هـ 2000م.

16- عبد الله كنون، النبوغ المغربي في الأدب العربي، ط 2، 1380هـ 1960 م، ج 1.

17- محمد بنلحسن بن التجاني، التلقي لدى حازم القرطاجني من خلال منهاج البلغاء وسراج الأدباء، عالم الكتب الحديث إربد – الأردن، ط 1، 1432هـ 2011 م.

18- محمد الديهاجي وآخرون (كتاب جماعي)، التلقي والتأويل من النموذج النص إلى النموذج التفاعلي للقراءة، مطبعة أميمة ابن باجة، فاس، ط 1، 1435هـ 2014 م.

19- حسن بن صالح الحميد، سنن الله في الأمم من خلال آيات القرآن الكريم، دار الفضيلة للنشر والتوزيع – الرياض، ط 2، 1432هـ 2011 م، ص 20. وانظر في هذا الصدد مفردات الراغب، وجامع الرسائل لابن تيمية.

20- غيثة بوضياف، الشعرية ونظرية التواصل في منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجني، رسالة دكتوراه، إشراف الدكتور أحمد باب الله، جامعة باتنة كلية اللغة والأدب العربي والفنون، الجزائر، 2017 م.

21- عمار الوكيلي، "التلقي النسقي وسياق مقصد التوفيق بين العقل والنقل في قصة حي بن يقظان لابن سينا أنموذجا. مجلة ريحان للنشر العلمي – سوريا – حلب ع 7 فبراير 2021.